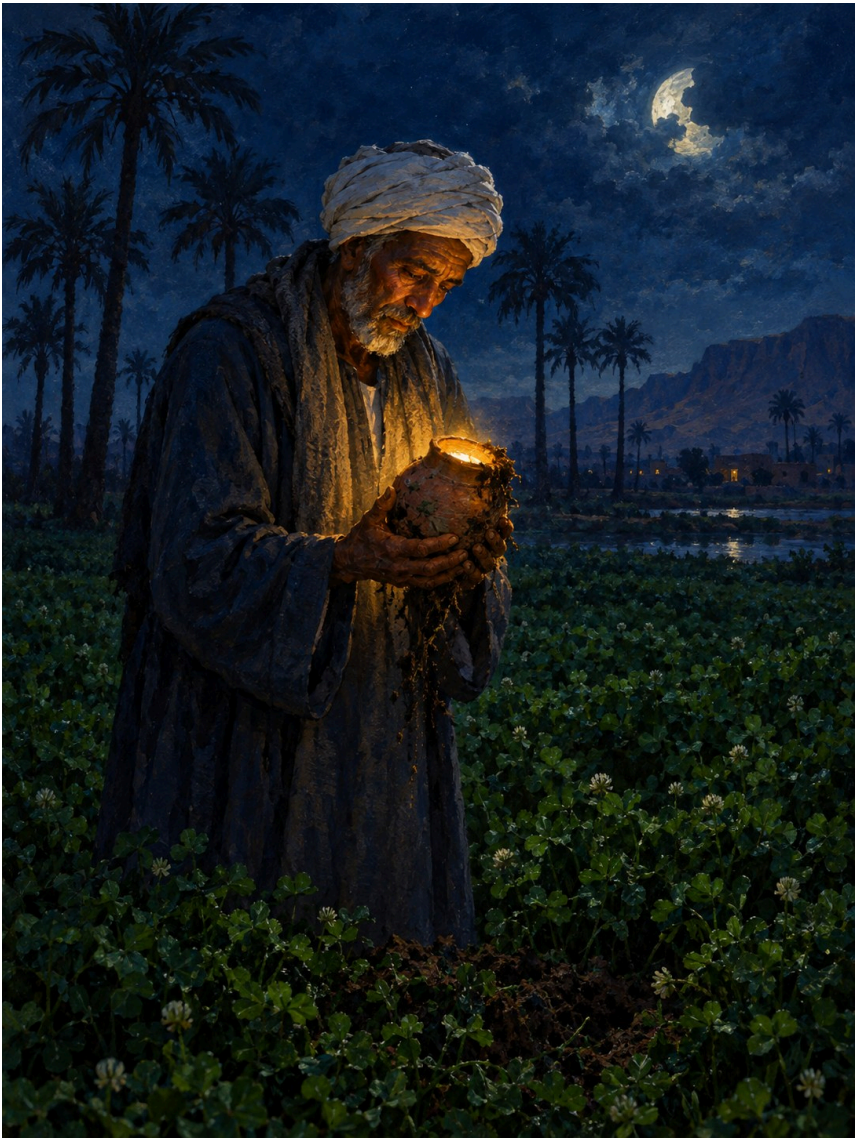

ليلة الحصاد الأخيرة

حمادة حامد محمود نور الدين

اللي بيبيع أرضه في الصعيد مش بيبيع تراب، اللي بيبيع أرضه بيبيع أبوه.

الكلام ده قاله عم إبراهيم لمراته قبل ما ينام، في آخر ليلة له في الدار القديمة. بكرة الصبح المقاول هيجي بالعقد، وعشرة أفدنة زرعها أبوه عن جدّه عن جدّ جدّه هتبقى «قطعة رقم ١٤» في مشروع إسكان. مراته ردّت عليه من غير ما ترفع عينيها من الشنطة اللي بتلمّها: «أبوك راح يا عم إبراهيم، والتراب ده هيطلع لأحفاده شقق يسكنوها. نام.»

بس عم إبراهيم ما نامش. وصية أبوه، اللي حفظها منه وهو بيموت، كانت جملة واحدة: «الأرض متتباعش يا ولدي من غير ما تقضي فيها آخر ليلة. الأرض ليها حق عليك إنك تسمعها قبل ما تسيبها.»

البيعة نفسها ما كانش قراره لوحده. ولاده التلاتة في المدينة، أكبرهم مدرّس وأصغرهم سائق ميكروباص، وكلهم متفقين: «الأرض يا أبويا هتاكلك، وإحنا مش راجعين نزرع. بيعها وخد فلوسها عيّالنا بيها في الجامعة.» ومراته كانت بتكرر من سنين:

«كفاية همّ فلاحة، انت كبرت.» هو ما زعلش منهم. فاهمهم. الأرض اللي كانت بتأكل عيلة، بقت تأكل راجل ومراته بشق النفس. بس الفهم غير القبول، والقبول غير النوم، وعشان كده كان صاحي الساعة حداشر بالليل.

فلبس جلبابه الشتوي، واخد عصاه، وخرج الساعة حداشر بالليل يمشي في الأرض آخر مرة.

الليلة كانت ساقعة سقع الصعيد في ديسمبر. القمر نصّه مكسر ورا النخيل. والأرض، اللي عمرها خمسة وستين سنة شغالة، كانت نايمة نومة مريحة غريبة: برسيم أخضر يهمس، ساقية بتتكلم بنفسها في الآخر، ريحة الطمي المتقلب جايّة من الحوض الشمالي. عم إبراهيم مشي على الحدود زي ما أبوه علّمه وهو في العاشرة: «اللي عايز يعرف الأرض يمشي على حدودها مش في نصها. في النص الأرض شغالة، على الحدود الأرض بتتكلم.»

وفي نص الطريق وقف جنب الساقية. افتكر أبوه هنا، راكع على التراب، بيعلّمه يعرف التراب الكويس من ريحته: «شم يا ولدي. التراب الجعبان ريحته خشنة، والتراب الشبعان ريحته حلوة زي

العسل الأسود.» وافتكر أول حصاد شارك فيه وهو في التلتة ابتدائي، طلع برضوي من المدرسة فوق الحمار، وأبوه شاله من رقبته ووصّله السنبلة وقاله: «اسمع السنبلة وهي بتتقطع. لو شكّت فيك، متدخلش الزراعة.» عم إبراهيم ضحك لوحده في العتمة. ستين سنة، وهو لسه مش عارف السنبلة شكّت فيه ولا لأ.

وأول ما وصل للحجر الركني، الحجر الكبير اللي في زاوية الأرض من جهة الجبل، سمع حاجة.

صوت معزقة بتخبط في التراب. منتظم. صبور. خبط، وفراغ، وخبط، وفراغ.

شد عصاه ومشي ناحية الصوت، وقلبه بيدق. اللصوص مبتحفرش. الجن مبتحفرش بمعازق. قال لنفسه وهو ماشي: «يا إبراهيم، لو لقيت حد هتضربه؟ انت عندك خمسة وستين سنة.» بس رجليه مشيت لوحدها.

الصوت كان جاي من الحجر الركني بالظبط. ولما وصل، ما لقاش حد.

لقى الأرض جنب الحجر مقلوبة قلاب جديد. معزقة واحدة، معزقته هو، اللي نسيها هناك من أسبوع، مغروسة في التراب لحد نص مقبضها، جنب حفرة صغيرة نضيفة، وجوا الحفرة جرّة فخار مغطاة بطبق نحاس قديم.

عم إبراهيم وقف دقيقة كاملة بيبص. المكان ده مكان معزول، والحفرة دي متعمّلة من دقايق، التراب لسه طري. بعدين، لأنه راجل صعيدي والصعيدي بيخاف ورا ظهره مش قدامه، نزل على ركبته، ورفع الطبق، وفتح الجرّة.

جواها حاجتين.

الأولى: كيس قماش صغير، فيه بذور قمح، صفرة وجامدة، من النوع اللي مفيش منه في البلد من الستينات، «البلدي الأحمر» اللي أبوه كان بيفتخر إنه بيطلع سنبلة تملى الكف.

والتانية: ورقة مطوية أربعة، مكتوبة بخط أبوه، اللي مات من اتناشر سنة. مش جواب. قصّة من تلات سطور:

«أنا إبراهيم بن عبد الرحيم، اشتريت حوض القيراطين اللي في ركن الأرض دي من مرزوق بن خليل سنة ١٩٦٨، لبنته اليتيمة سكينة، عشان جوزها خد نصيبها في ميراث أبوها. الورق اتعمل في دفتر مرزوق وما سجلتوش عشان رجولته، ومرزوق مات قبل ما يسلّمها. القيراطين دول ملك سكينة بنت مرزوق، وشهودي على الأرض أرضها وعلى السماء ربنا.»

عم إبراهيم قعد على التراب جنب الحفرة والقمر بيتحرك فوقه ببطء.

سكينة بنت مرزوق. الست اللي عندها ستين سنة دلوقتي، اللي بتخيط في البيوت، اللي جوزها مات وما سبلهاش حتى أوضة تملكها، اللي بييجي أبوه يديها سلة الخضار كل موسم من غير ما يقول ليه. طول عمره كان فاكرها كرم أخلاق. طلعت قضية أرض.

وبكرة، العقد كان هيتمضى على العشرة أفدنة كلهم. منهم قيراطين مش ملكه.

قضى باقي الليل ماشي في الأرض، من الحجر للساقية ومن الساقية للحجر. فكر يكمل بيع ويخرج القيراطين بعقد منفصل بعدين، وبعدين خاف على الست العجوز من المحاكم. وفكر يقول لولاده الحقيقة، وبعدين عرف إنهم هيقولوا: «أبوك بيهزر، الورقة مكتوبة من راجل ميت ومفيش تسجيل.» وفكر في أبوه، اللي عاش صاحي على سر غلط، يدي السلة لسكينة كل موسم كأنه بيسدّد قسط. «راجل يا أبويا،» قال لعتمة الساقية، «بس تقيل. راجل بس تقيل.» مراته لما صحيت الفجر ما لقتهوش جنبها لقته قاعد على المصطبة بيدخن سيجارته البدائية وشكله رايح في جهاد. سألته: «سمعت الأرض قالت إيه؟»

رد عليها بصوت هادي غريب: «قالتلي إني عمرى ما كنت صاحبها. كنت خازنها لناس تانية.»

الساعة تسعة الصبح، المقاول وصل بالعقد والمختار واتنين شهود. عم إبراهيم قرا العقد كله، مضّى عليه بقلمه، وبعدين وقف وقال: «بس في تعديل واحد. القيراطين اللي في الركن عند الحجر الكبير مش في البيع.»

المقاول انفعل: «الخريطة متسجلة عشرة أفدنة يا حاج!»

«العشرة أفدنة ليك. القيراطين دول مش بتاعي أصلًا، وانا بقولك مش هبتلّعمهم في البيعة.» وقال الكلام اللي قاله قدام المختار، وأهل البلد كلها عرفت الحكاية قبل العصر، زي ما الصعيد بيعمل.

سكينة بنت مرزوق سمعت الخبر وهي قاعدة بتخيط لعروسة فستان. البلد كلها جت لها تشفع فيها: «روحي يا سكينة، الأرض دي بتاعتك.» الست خافت تروح، وقالت للجيران: «أنا عايشة من غيرها ستين سنة، مش هعرف أعمل بيها إيه؟»

بس عم إبراهيم جه لها بنفسه، ومعاه الجرّة، وحطها قدامها، وقال لها جملة واحدة: «الجرة دي متدفونة في أرضك من سنة ١٩٦٨ يا سكينة. اديها حقها، ازرعيها.»

والسنة اللي بعدها، وسط سور المشروع اللي طلع، والبلوك اللي اتبنى، كان في قطعة خضرا صغيرة في الركن، فيها قمح أحمر طويل واقف في الريح، نوع مفيش منه في المحافظة كلها. والناس اللي بتعدّي بتواف تشوف، ويسألوا: «الزرع ده بتاع مين؟»

والإجابة بتيجي دايمًا من ست عجوز قاعدة على المصطبة جنب القطعة، بتبتسم: «بتاع أبويا. هو اللي زرعه لي، من غير ما يعرف، قبل ما يموت.»

وعم إبراهيم، اللي انتقل لشقة بنته في المدينة، بييجي يزور القطعة دي مرة كل سنة، في ليلة الحصاد بالظبط. يقف عند الحجر الركني، يسمع الساقية البعيدة بتتكلم، ويهمس للأرض اللي مش بتاعته:

«سامحيني. كنت فاكرك ملك، طلعتي أمانة.»

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app